أعلام القصة فى الأدب الإنجليزى الحديث

بحث بقلم : د. طه محمود طه

١ ـ فيرجينيا وولف ١٨٨٢ ـ ١٩٤١

١ ـ مقدمة ٢ ـ حياتها ٣ ـ فنها القصصى ٤ ـ أعمالها ـ « حجرة يعقوب » ـ « مسزدالواى » ـ « الى الفنار » ـ « الأمواج » .

***

ترتكز شهرة فيرجينيا وولف على دعامة لاتمت لفن كتابة القصة التقليدى فى شىء ، ويمكننا تقييم أعمالها عن طريق قدرتها التى تنحصر فى اعتبار القصة وكأنها حالة من الاحساس المستمر الآنى وليس عن طريق قواعد كتابة القصة ـ فهى لم تكن تحذق من سرد (الحدوته) التى تعتمد اعتمادا كبيرا على رسم الشخوص والحركة الخارجية . فقصصها بوجه عام تصوير للحاضر الذى تعيشه شخوصها وانعكاس لتلك اللحظات العابرة فى حياة الانسان وتسجيل للحظات النشوة الخاصة . ولم تتخل فيرجينا وولف ابدا عن الوهم اللذيذ الذى كان يدفعها الى الاعتقاد بأن شخوصها من هذا الصنف من الناس الذى يستجيب لخلجات النفس والمشاعر ، ولانها لم تعر عالم الواقع المادى من حولها أى اهتمام ، نجدها تتغاضى عنه تارة وتشك فى قيمته وحقيقته تارة اخرى . ولهذا تفضل طريق البحث عن سر الحقيقة والسعى وراء هدف يراوغها بدلا من السعى وراء الحقائق الخارجية الملموسة . وحاولت فى معظم انتاجها الأدبى ان تكشف عن سر تلك الحقيقة الروحية الصوفية التى تكمن خلف ستر من تجارب الحياة وتقول :

« ما الذى نعنيه بكلمة « الحقيقة » ؟ يبدو ان الكلمة تعنى شيئا لايستقر على حال ، شيئا لايمكننا الاعتماد عليه ، شيئا يمكننا ان نجده الآن فى طريق مترب ، وأحيانا فى ورقة من جريدة ملقاة فى شارع ، وأحيانا فى زهرة فى الشمس ، واحيانا تضىء الطريق لمجموعة من الناس فى حجرة ، واحيانا تضفى مغزى على قول عابر . »

والعالم فى نظرها عالم صور وعالم أسرار ، صور تمر سراعا ، وأسرار دفينة فى نفوس أصحابها وفى الأشياء من حولها ـ وتعبر فى قصصها عن العالم بهذه الصور الروحية فيما يشبه الشعر الغنائى أو ما يشبه التراتيل التى تتسم بالسمو الصوفى . وتستعين فى تبيان هذه الصور بانطباعات تقتنصها تباعا من حاضر شخوصها وتضفى

عليها رموزا ملهمة تزيد من ايحاءاتها ومغزاها • واذا كانت هذه الرؤى لايمكن الاحتفاظ بها لوقت طويل ، فللفن — كالرسم والتصوير والشعر والقصة — القدرة على حبسها والاستفادة منها واذا كانت هذه اللحظات العابرة ، لحظات النشوة الخاصة ، مهمة فى حد ذاتها ، فان ما يفعله بها الفنان أو الانسان هو الأهم •

وقد كانت فيرجينيا وولف شاعرة مرهفة الحس ينقصها الدراية بفن كتـــابة الشعر ولهذا اصابها الاحبــــاط الى حد ما فى كل ما كتبت نثرا • فنحن نجد فى اسلوبها النثرى فى قصصها خصائص الشعر الغنائى • وومضاته وعذوبته ومادته • ولما كان ميدانها ووسيلتها الكلمة المكتوبة بكل ما تحمل من اثارات وايحاءات سحرية عن طريق اللون وتوافق الأنغام فقد اتجهت لكتابة القصة وتحدد بذلك مجالها • وربما تستطيع القصة فى المستقبل ان تستفيد من هذا الاسلوب الشاعرى وتجمـــع بين خصائص النثر الفنى فى القصة والاسلوب الشاعرى فى القصيدة ويحدث التزاوج السعيد بين القصة والقصــــيدة على غير ما الفناه فى الملاحم ، وقد اقترب القصصى الايرلندى جيمس جويس من هذا اللون من النثر الشاعرى فى قصتيه « صورة للفنان كشاب » ، « عوليس » • وان كانت فيرجينيا وولف قد اهملت الحركة الخارجيـــة والصراع فى شخوصها فقد نجحت فى نقل هذه الحركة الى داخل العقل نفسه الذى اصبح مسرحا لتفاعل الافكار واستقبال الانطباعات الحسية المختلفة التى تنقلها اليه الحواس الخمس • وتقول فى مقال لها عن القصة الحديثة :

« تأمل ذاتك من الداخل وسيبدو لك ان الحياة بعيدة كل البعد عن هـــذا • افحص لفترة قصيرة عقلا عاديا فى يوم عادى • فالعقل يتقبل مالا يعد أو يحصى من الانطباعات ، منها التافهوالخيالى والزائل ، ومنها ما ينقش بصلب حاد • وتاتى هـــذه الانطباعات من جميع الاتجاهات ، سيل مستمرمن الذرات التى لاحصر لهـــا ، وعندما تهبط هذه الذرات ، وعندما تتجمع لتعطى معنى ليوم الاثنين أو الثـــلاثاء ، نبدأ فى الاهتمام بأشياء لم نكن نعيرها اهتماما فى الماضى ، وندرك ان اللحظة الهامة ليست هنا بل هناك ••• الا ينحصر عمل الأديب فى نقل هذه الروح المتغيرة التى لانعرفها ولا نستطيع تحديدها ؟ »

***

وقد ولدت فيرجينيا فى ٢٥ يناير عام ١٨٨٢ قبل مولد جيمس جويس باسبوع واحد (٢ فبراير عام ١٨٨٢) وتوفيت فى نفس العام الذى توفى فيه جويس ، عام ١٩٤١ • وكانت سليلة عائلة عريقة فى الأدب فكان والدها « سير لزلى ســـتيفن » اديبا وفيلسوفا ومعلما ومحررا لمجلة « كورنهيل » وجامعا لمرجع القيم « قاموس السير الوطنية » •

كما كان متزوجا من صغرى بنات القصصى الفكتورى المعروف ثاكارى صاحب « سوق الغرور » • واستمدت فيرجينيا وولف ثقافتها من مكتبة والدها وكان اساتذتها من اصدقائه من المفكرين والادباء • وتذكر فيرجينيا وولف انه عندما كانت فتاة صغيرة اعطاها والدها ، وكانت قد انتهت من قراءة مجموعة من الكتب من مكتبته ، الجزئين

الخامس والسادس من مجموعة المؤرخ « جيبون » « تداعى وسقوط الامبراطورية الرومانية » • ولقد اضافت فيرجينيا وولف الى القصة الانجليزية ما حصلته من الأدب الكلاسيكى الانجليزى والفرنسى واضفت على اسلوب النثر القصصى حساسية فائقة وشاعرية نادرة واناقة فى الأسلوب • وقد قرأت بيرجسون وماسيل بروست وجيمس جويس وتعلمت منهم الشيء الكثير واصبحت اعظم كاتبة للقصة فى القرن العشرين ، كما طورت استعمال (تيار الوعى) فى القصة استغلته استغلالا رقيقا بنوع من الحساسية المرهفة •

فمن بروست استعارت فكرتها عن الشخصية السائلة المتغيرة ، وعن النفس التي هى « حركة » أو « عملية » مستمرة متغيرة من حالة الى حالة اخرى وابرزت هذا فى فكرتها عن النفس المتعددة • وقرأت « عوليس » لجيمس جويس وكانت تنشر فى مسلسلات فى عام ١٩١٩ واقتبست منه طريقته فى تبسيط وضغط « الحدوته » وبسط وتوسيع ادراك الفرد وانطباعاته والتغاضى عن رسم الشخوص من الخارج وفكرته عما يجرى داخل مسرح العقل من تداعى المعانى والانطباعات التى تجلبها الحواس • واستجابت روحها الشاعرية لاسلوبه النثرى الذى يزخر بالايحاءات والرموز ويتميز بالسيولة •

وربما جف خيالها إذا ما حاولت المضى فى سبيل هـ • ج • ويلز أو بينيت وربما كان طريقهم محفوفا بالأخطار بالنسبة لعقلية مرهفة كعقليتها ولهذا نبذت اتجاه من اطلقت عليهم « الماديين » فقد كانت الشخصية الخارجية بمثابة غلاف شفاف تستطيع ان تنفذ منه الى الحقيقة العارية الكامنة فى شخوصها وتصل الى أعماقهم وتكتشف افكارهم ومشاعرهم وانطباعاتهم • وتقول « ان الحياة هي اهم شيء ، ولا شيء سوى الحياة • طريقة اكتشاف حالة الاحساس المستمرة هذه • » واصبحت مادتها هى المادة الخام التى تكونها الذرات فى وعى شخوصها ـ افكارهم ، مشاعرهم ، حصيلتهم من الحواس الخمس ـ تصبغها بألوان خيالها الزاهية وتحولها الى صور متتابعة عن طريق حساسيتها الشاعرية الفائقة ثم تصقلها فى كلمات تستطيع بها ان تنقلها الينا بنفس التتابع وبنفس الحيوية التى سجلتها بها • وهذا هو ما تعلمته من برجسون ومن تفريقه بين الزمان الآلى والزمان الذاتى أو الدوام •

***

وكانت فيرجينيا وولف تخجل من المجتمعات وتميل الى الصمت احيانا ولهذا كانت تتذبذب بين الحزن تارة والمرح تارة أخرى • ويعزو أحد النقاد هذا التقلب فى مزاجها وحيرتها وحزنها الى وفاة والدتها وكانت فيرجينيا وولف تتعلق بها ، ربما نرى صورتها فى شخصية مسز رامزاى فى قصتها « الى الفنار » • ويخيل الينا أنها قد شعرت ، بعد وفاة والدتها ، بأن الحياة قد غدرت بها مما دعاها الى التريث والحرص فى انتقاء اصدقائها الا بعد فترة طويلة وعدم التعلق بهم • وتموت اختها الكبرى اثناء ولادة طفلها بعد وفاة والدتهما بوقت قصير وخلفت هذه الحادثة ايضا فى نفسها جرحا غائرا لم تبرأ منه واحساسا اعمق بأن الحياة ما هى الا خداع •

ويموت الوالد فى عام ١٩٠٤ ويصبح لأفراد العائلة الأربعة ثروة لا بأس بها ويقومون بشراء منزل فى حى « بلومزبرى » وهو حى فى مدينة لندن يقطنه مجموعة من الادباء والفنانين واصبح لهذه المجموعة فيما بعد اسم معروف فى الادب الانجليزى الحديث. وتميزت جماعة « بلومزبرى » بالتباعد والتعالى الى حد ما وكان معظـم افرادها من العقلانيين وأصحاب الأفكار الجديدة والمتكلفين . وإصاب فيرجينيـا وولف نوع من الانهيار العصبى فى عام ١٩٠٥ وكانت ضعيفة الجسد مرهفة ، وسافرت الى اوروبا للنقاهة . وهناك راعها جمال اليونان وما لحضارتها القديمة من مغزى وتمـكنت من استعادة صحتها ولكنها لم تنعم بها طويلا فقد صدمت مرة ثالثة لوفاة اخيها « توبى » الذى لم يستطع جسده الهزيل ان يقاوم حمى التيفود التى اصيب بها فى اليونان .

وعادت فيرجينيا وولف الى انجلترا والقت بنفسها فى دوامة من الأعمال الأدبية الكثيرة فكانت تكتب المقالات وتلقى المحاضرات وتناضل فى سـبيل حقوق المرأة وبدأت تعمل فى كتابة قصتها الاولى « رحلة الى الخارج » وانتهت من كتابتها فى سبع سنوات . وفى هذه الاثناء اصبح لجماعة « بلومزبرى » كيانها وان لم تتضح ملامحها كلية . وكان ليتون ستراتش من بين اعضائها ثم انضم اليهـا روجر فراى الكاتب المسرحى وليونارد وولف (الذى تزوج فيرجينيا وولف عام ١٩١٢) وكلايف بيـل ماينارد كينيس وليدى اوتولاين موريل فورستر . وقد تناول كثير من النقاد هـذه المدرسة ويكفى ان نقول انه لولا نشاط فيرجينيا وولف وذكاؤها لما قدر لهذه المدرسة أن يظل اسمها معروفا أو تسجل فى تاريخ الأدب .

وكان للحرب العالمية الأولى اثرها الكبير فى تحطيم صحة فيرجينيـا وولف وروحها المعنوية أثناء هذه المجزرة البشرية واضطرت الى ترك مدينة لندن التى كانت تحبها ورضخت للظروف المحيطة بها واتخذت لنفسها مسكنا فى رتشـموند حتى تستطيع ، لو انها قريبة من لندن ، ان تتمتع بحجرة هادئة تفكر فيهـا وتكتب . وحاولت فى هذه العزلة والهدوء ان تخلق جوا متكاملا بوضع القطع المتناثرة بعضهـا بجوار البعض الآخر فى محاولة لاكتشاف معنى للحياة . وتوضح لنا مذكراتها هـذه المحاولة أروع توضيح كما أحضرت معها من لندن مطبعة كانت العائلة قد اشترتها وهذه مغامرة جديرة بالتسـجيل لأن دار طباعة « هوجارث » أصبحت ملاذا للأدباء الطليعة وكان طابعها الانتقاء وليس لها سياسة معينة بل كانت تأخذ على عاتقهـا تشجيع الأدباء المحدثين والمجددين .

وقد نشرت فيرجينيا وولف قصـائد للشـاعر ت . س . اليوت وكاترين مانزوفيلد قبل ان يحرزا الشهرة وتدر كتبهم ارباحا على الناشرين . ونشرت مطبعة « هوجارث » كذلك قصصا لفيرجينيا وولف ومقالات ونجحت فكرة المطبعة واتسعت دائرة اختصاصها وضاق بها المنزل فى رتشموند وانتقلت اخيرا الى لندن ودرت على اصحابها دخلا متواضعا ولم تحقق ارباحا كثيرة فى بادىء الأمر . وبالرغم من الكتب الكثيرة التى نشرتها فيرجينيا وولف فى حياتها فلم يتسن لهـا ان تعيش الا لفترة قصيرة فى حالة مالية رغدة . فقد نشرت « رحلة الى الخارج » فى عام ١٩١٥ وبعدها

« الليل والنهار » فى ١٩٣٠ ثم « الاثنين والثلاثاء » فى ١٩٢١ وهى مجموعة من المقالات . وفى عام ١٩٢٢ نشرت « حجرة يعقوب » وفى هذه الكتب لم تخرج الينا فيرجينيا وولف كما يجب ، فقصتها « رحلة الى الخارج » قصة تقليدية من حيث الحبكة ورسم الشخوص ، قصة فتاة ساذجة تدرك العلاقة بين الجنسين وتقع فى الحب ولكنها تتوفى بعد اصابتها بالحمى قبل ان تحقق أحلامها • وشخصية الفتاة مرسومة بعناية والفكرة المحورية فى القصة تدور حول سر الحياة والموت وتوحى الينا فيرجينيا وولف ان السر يكمن فى اعماق الوعى •

ولن نستطيع ان ندرك اهمية فيرجينيا وولف ككاتبة قصصية الا بعد « مسز دالواى » فى عام ١٩٢٣ فبظهور هذه القصة تمكنت فيرجينيا وولف من ان تخطو بالقصة الحديثة خطوة جريئة الى الامام وتتكلم بصوتها الحقيقى الذى سجل لها الشهرة • وقد جلب لها هذا الكتاب الشهرة التى نرى لها صدى فى مذكراتها ، تلك الشهرة التى كانت تتمناها خفية • ومع الشهرة جاءت المشاكل العديدة ـ ضيوف غير مرغوب فيهم ، خطابات عديدة ، زيارات من والى ادباء وغير أدباء ، دعوات لالقاء المحاضرات أو للعشاء أو للتحكيم أو لحفلات كوكتيل • واخرجت لنا فى ١٩٢٧ « الى الفنار » وبعدها « اورلاندو » ١٩٢٨ بعد صداقتها لفكتوريا ساكفيل ـ ويست •

وفى السنوات العشر الاخيرة من حياتها اخذت تكتب بحنق شديد كما تبين مذكراتها وكانت تخطط لكتاب جديد حتى ولو لم تفرغ من الكتاب الذى كان بين يديها • وظهرت قصتها « الامواج » فى عام ١٩٣١ وبعدها « السنين » فى عام ١٩٣٧ ثم « بين الفصول » ١٩٤١ ، وانتهت من هذا الكتاب قبل ان تحطم الحرب العالمية الثانية ارادتها وتقودها الى الانتحار غرقا فى نهر « اوز » القريب من منزلها الريفى •

وفى السنوات الاخيرة لم تكل عزيمتها أو يقل مجهودها كما نرى فقد كافحت وزوجها الرقابة ودافعا عن حق النشر حتى عندما كانت الفريسة د•هـ•لورنس • وكانت سنوات حياتها الاخيرة سنوات قاسية أظهرت فيها أمانة فكرية وروحا عالية فى وجه الكوارث • ولا غرو فى أنها فضلت أن تتساق مع تيار نهر « أوز » كما استجابت فى حياتها لتيار الوعى فى شخوصها بدلا من العيش لمشاهدة زوال كل ما كانت تحبه •

***

ولو تساءلنا عما تستحق فرجينيا وولف من أجله من تمجيد لقلنا بأنه يرجع الى ربطها بين التصور الدقيق لماهية الشعر والحذق الممتاز فى هذا التصور الابداعى ونقله الى واقع قصصها • فقد حاولت ان تمزج الشعر بالنثر والقصة بالقصيدة الغنائية • وقصصها تعنى اكثر من مجرد تمكن من الصياغة اللفظية أو القدرة على التعبير الصحيح عن المقصود • انها تعنى أنها تعمل على مستوى ابداعى وتخيل حقيقى، فهى تركز كل قواها فى موضوعها وتزوده باكبر قسط من طاقتها وباكبر ما يمكن من ثروة عن طريق الاشارة والرمز والتداعى •

ولا تقدم لنا قصصها على انهاافكار أو تداعى معانى أو تيار سـائل من الوعى المستمر بل على أنها تجربة حية • وانتاجها الأدبى لا يحير العقل ويربك المنطـق ، كانتاج جيمس جويس بل يثير مشاعرالانسان جميعها • ومما لا شك فيه انه يمكننا ان ننظر الى اعمالها نظرة عقلية ، أو نظرة فلسفية ونستنبط مضموناتها العملية ، الا ان فيرجينيا وولف لم تقدم الينا قصصها على هذا النحو • فقصصها تنبثق بدفعة حية قوية من أعماق نفسها وتسيطر علينا كلية ولها تأثير مباشر كتأثير الموسـيقى أو اللوحات الزيتية •

وقد ادركت فيرجينيا وولف نقطة الضعف فى قدراتها منذ البداية واعتمدت فى فنها على التأثير علينا فى نطاق محدود دون ان تهدد طاقاتها فى الحبكة القصصية أو فى الشكل كما تعمد جويس فى « عوليس » • ولهذه الاسباب مجتمعة وغيرها نجد انه بالرغم من عمق نظرتها وثرائها فليس من التجنى اتهامها بأنها محدودة وتذكرنا فى هذا المجال بجين اوستن • والامر لايقتصر على ان كثيرا من تجاربها لايمكن مشاركتها فيها وغالبا ما تقع خارج نطاق حياتنا اليومية بل حتى أنه فى داخل مجالها الخاص بها لها اتجاهات وميول شاعرية صوفية قوية يصعب على الكثيرين منا تذوقها وتتبعها •

وتشهد قصصها بتجاوبها الكلى لحواسها جميعا ، وتظهر ملذات البصر بوضوح ولكن عينها تعى بقدر ما تسمع أذنها وتشم أنفها وتلمس يدها ويذوق لسانها • ففى استطاعتها التمتع بوجبة طعام بنفس الشعور والتذوق والخبرة التى تتمتع بها بمنظر طبيعى او بشروق الشمس أو عبير الازهار أو الحان قطعة موسيقية • ولا يسعنـــا ونحن نقرأ قصصها الا ان نعترف اننا بين يدى فنان لا يفوته شىء من حوله وان عقله متيقظ دائما لاستقبال وتسجيل ما تقدمه له الحواس • ولا يعنى ذلك ان الفنان مجرد جهاز تسجيل فحسب فمهمته هى « غربلة » هذه الاحساسات وتصفيتها وتنقيتهـا ليتصيد منها ما هو حيوى وغنى بتضميناته ، ففرجينيا وولف تنتقى الانطباعات اللازمة لرسم صورتها وتنجح فى ان تنقلنا الى داخل رؤوس شخوصها فنحس معهـا وهى تأكل وتشرب وتمشى ونصادق من تصادقها ونطلع على ذكرياتها حتى نرى الشخوص كما ترى الشخوص نفسها • وبدلا من تتبع سيرة الشخوص تتبعا زمنيا مسلسـلا نراها نعيش فى حاضر مستمر غنى بمشاعرة ، حاضر يجذب الماضى اليه • ولهـذا فشخوصها تبدو كأفكار لاكشخوص حية فى قصة ، فجوهر الفرد موجود فى القصة فى حالة سيولة دائمة تتميز بالوحدة فى التعدد وقد تبدو الشخوص كأشباح ولكنها اشباح نألفها وان كنا لانستطيع الامساك بها •

***

« حجرة يعقوب » ١٩٢٢

نرى اثر جويس واضحا فى قصتها « حجرة يعقوب » فى محاولاتها الجادة لتطوير تكنيك كتابة القصة • ففى هذه القصة تحاول ان ترسم عن طريق الصور شـخصية

شاب انجليزى منذ طفولته حتى سن السادسة والعشرين عندما يقتل فى الحرب • وتسجل لنا تجاربه فى لمحات خاطفة أو فى لوحات انطباعية سريعة لاتسلسل فيها ولا استمرار ، ولكنها شذرات واشتات من افكاره وانطباعاته بطريقة سينمائية تظهر فيها الصورة أو « اللقطة » لبرهة ثم تختفى رويدا رويدا لتحل محلها لقطة اخرى • الرابط الوحيد بين هذه الصور هو فيرجينيا وولف ذاتها التى تتحكم فى حركة المد والجذر هذه أو حركة القبض والبسط • واحيانا تزول الصورة بسرعة قبل ان نتأملها ويصبح من العسير علينا أن ندرك ملامحها قبل ان ننتقل الى صورة أخرى •

ويمكن تلخيص القصة ـ ولا يسعنا الا التلخيص فى مجال ضيق كهذا ـ فى مرحله الطفولة ثم أيام دراسة بطل القصة فى كمبردج والسيدات اللائى يحببنه ثم حبه لفوريندا التى لم تكن مخلصة له وخيبة الامل التى تحول مدينة لندن الى كابوس مزعج يبدو فيه البلابل وكأنها صقور جارحة ثم موته الفجائى فى الحرب •

ويدخل القارىء فى النهاية فقط الى حجرة يعقوب ويتأمل مخلفات صاحبها الذى قتل فى الحرب ، ويسمع والدته تسأل : « ماذا سأفعل بأحذيته البالية ؟ » ويخيل الى القارىء ان القصة تبدأ من هذه النقطة وان فيرجينيا وولف قد رجعت الى الماضى لتقص علينا حياته فى مناظر حتى نصل الى نقطة البداية • ونتتبع حياته وكأننا فتحنا (البوم) صور العائلة ووجدنا ان الحياة قد دبت فيها أو كأننا نشاهد شريطا تلفزيونيا نحتفظ فيه بالصور والصوت •

ويمكننا العثور على يعقوب فى البيئة التى عاش فيها وفى الاماكن التى زارها أو فى الاشخاص الذين احتك بهم • وهذه احدى وسائل فيرجينيا وولف فى رسم شخوصها ، فربما لاتعير البطل اهمية قصوى ـ وهذا ما نراه فى هذه القصة ـ ولكنها تدرس اثره فى الآخرين • وكل منظر من مناظر القصة منظر حى ولكن لم تستطع فرجينيا وولف ان تسيطر على فنهاسيطرة تامة فى هذه القصة فلا تساعدنا المناظر كلها على تفهم البطل وكثير منها يهتم بشخوص ليس لها علاقة بالبطل فى تلك اللحظة ولا يلتقون به بعد ذلك •

ولكن فيرجينيا وولف نجحت فى محاولتها الاولى فى نقل تلك الروح المتغيرة للحياة من حولها واستطاعت ان تسجل حركات المد والجذر لا فى نفس يعقوب فقط بل فى نفوس من كانوا حوله • وصفحات الكتاب مملوءة بالفرح بالحياة المتغيرة وبالالوان المتعددة لسرها ويبقى هذا الشعور مع القارىء حتى بعد مغادرته لحجرة يعقوب التى تنطق محتوياتها بقصة انسان عاش فيها لفترة من الزمن ولن يعود اليها ثانية •

وتشبه عين فيرجينيا وولف فى هذه القصة وغيرها عين الكاميرا التى تعتبر مسؤولة عن هذا التغير المفاجىء من منظر الى آخر وطريقتها هنا تشبه الى حد ما طريقة التكعيبيين فى ابراز العلاقات بين تجربة واخرى أو بين منظر وآخر بوضعهم

للواحد بجوار الآخر ومغزى القصة يمكن تلخيصه فى ان الزمان والموت والاحباط يلقون بظلالهم السوداء على أحلام الشباب الزاهية ، وتطفىء الخيانة نار الحب المشتعلة وتترك الانسان خلفها رمادا وحطاما وترابا ٠ وفى هذه اللوحة الزيتية أو فى هـــذا الفيلم تستمر فيرجينيا وولف فى البحث عن سر الحياة وعن معنى فى التجربة الانسانية ، ولكن السر يظل سرا ٠

مسز دالواى ١٩٢٣

تعتبر « مسز دالواى » بداية أسلوب فيرجينيا وولف فى كتابه القصـــــة ٠ وتشبه « مسز دالواى » الى حد ما قصة « عوليس » لجيمس جويس ، « فمسز دالواى» تستغرق يوما واحدا كقصة « عوليس » وتدور حوادثها فى يوم من ايام شهر يونيو كعوليس أيضا ٠ ومعظم الحوادث والافكار والخواطر التى تسجلها فيرجينيا وولف ، وكما يفعل جويس فى (عوليس) تعتبر تافهة الى حد ما ٠ واذا غاب عن القـــارىء تسيج القصة فستبدو وكأنها شطحات مجنون او اشتات من افكار مفككة لا رابط بينهـــا ٠

والشخصية المراد رسمها وفحصها وتسجيل خواطرها هى مســـز دالواى ، ونعرف كل ما يحدث لها فى هذا اليوم ـ ما تراه وتشمه وتسمعه وتفكر فيه وتحس به وتتذكره ٠ وتسجل لنا فيرجينيا وولف كل انطباعاتها دقيقة بدقيقة على طريقة دوروثى ريتشاردسون بالاســـتعانة بتكنيك جيمس جويس ٠ ومســـز دالواى فى الخمسين من عمرها ومتزوجة من أحد اعضاء البرلمان الانجليزى ولها ابنة عمرها ١٧ عاما ٠ وتقيم مسز دالواى فى مساء ذلك اليوم حفلا بمناسبة عيد ميـــلادها ولذلك نراها تستعد لهذا الاستقبال منذ الصباح فتخرج لشراء الازهار وتتكلم مع الخـــدم وتعطيهم ارشاداتها للترتيبات النهائية وتسلى لبضع دقائق صديقا لها كان قد عاد من الهند وتحيك بعض الملابس كما تفكر طول الوقت فى مشكلة الوجود والحياة والموت ٠ ويبدو على مسز دالواى الثبات والاتزان ولكنها فى داخل قرارة نفسها حزينة تتحسر على الاشياء الكثيرة التى لم تستطع ان تحققها كل هذه السنوات ٠ وهـــذا اليوم فى حياتها ، وهو جسم القصة ذاتهاومادتها الخام ، تعبر عنه فيرجينيـــــا وولف فى مونولوج داخلى طويل هو نهر البواعث وتيار وعيها الذى يتدفق بهدوء ولا يبـــالى بالزمن من بينما تقطعه من آن لآخر دقات ساعة بيج بن تعلن ساعات اليوم وتشير الى التقابل بين الزمان السيكولوجى والزمان الميكانيكى ٠

ولا تهتم فيرجينيا وولف بما يحدث يوميا عادة ولكن ما يهمها هو ما يحدث داخل رأس الفرد نفسه فى يوم معين وتقول فى مقال لها عن القصة الحديثة : « ان الحيـــاة ليست سلسلة من المصابيح فى ترتيب منظم ، ان الحياة هالة مضيئة ، غلاف شـــبه شفاف يحيط بنا منذ بدء الوعى حتى النهاية » ٠ وتصبح مهمة القصاص هى عرض هذه الهالة المنيرة السريعة الزوال : خضوع الحركات والتصرفات الظـــاهرة للافكار الخاصة والشعور الذى يسيل من تيار الحيـــاة المتغير فى النفس البشرية ٠ واذا ما

استطاع القصاص ان يمسك بهذا الخيط، فمعناه تعميم هذا الوصف ليوم فى حياة مسز دالواى مثلا لكى يصبح اى يوم فى حياتها أو حياة اى شخص فى اى بقعة من بقاع العالم ، وينتج عن هذا شعور عميق بأن الفرد ما هو الا جزء من تيار الوجود نفسه الذى يتحرك ويتغير باستمرار • ومعناه أيضا انه اذا ما ألقى الفرد بنفسه فى هذا التيار المتغير فلن يصبح فردا مميزا بل سيغمره هذا التيار ويشده معه ليصبح جوهره جزءا من آخرين وينساب مع تيار الانسانية كلها •

وكيف استطاعت فيرجينيا وولف ان تحقق هذا التكنيك فى قصصها ؟ اولا باستغلال تيار الوعى ، واول من تكلم عن تيار الوعى هو ويليام جيمس صاحب المذهب التجريبى (براجمايتزم) ، ففى كتابه « اسس علم النفس » وفى المجلد الأول فى الفصل الذى يعالج فيه « تيار الفكر » يقول انه وجد بعد دراسة العقل والافكار الذاتية تغيرا مستمرا ومكانا يزخر بالتعدد فى الاشياء والعلاقات • وقد حاول العلم ، كما يقول ، ان يختزل الحياة المعقدة ويختصرها الى البساطة باعتبار الوعى ذاته شيئا منظما منطقيا • ولكن اذا نظرنا الى داخل نفوسنا لوجدنا عن طريق الاستبطان ان الوعى ماهو الا « تيار مستمر » ••• « نهر أو تيار » هى التشبيهات التى يمكن بها وصف هذا الوعى • ويقول « دعونا نطلق عليه من الآن فصاعدا (تيار الفكر) أو تيار الوعى أو تيار الحياة الذاتية » • وبعد ان زود القصاصين بمجال يستطيعون ان يطفو فيه ويسبلوا معه استطرد يحدثهم عن المشاكل التى قد تنتج عن هذه انفلسفة واهمها مشكلة الذات • ويقول ان شخصيتنا ليس لها نفس واحدة كما كان يظن القصاصون أو العلماء ، بل تتكون من عدة نفوس ، أو بالأحرى ، من مجموعة متغيرة سائلة من النفوس دون حدود مرسومة •

وفى نفس الوقت ثار برجسون على التجريد الميكانيكى ونادى بالحدس أو التعاطف الذهنى وقال ان الحقيقة تكمن فى « المتغير الذى لايمكن تقسيمه » فى الوعى ذاته • وهذا الاستمرار نوع من « الآنية » التى تجعلها الذاكرة آنية مستمرة ، أو ، كما تقول جرترود شتين ، « حاضر يبدأ من جديد دائما » • والمشكلة فى العلم أو المنطق أو الساعات هو محاولتها اخضاع هذا السيل الجارف المستمر المتغير من الحقيقة الى ادراك معين أو فكرة معينة •

ولعل هنرى برجسون قد عبر اصدق تعبير عن فلسفة ويليام جيمس حين قال : « ان الواقع – كما يراه جيمس – كثرة وفيضانا من الأشياء • ان الفرق بين هذا الواقع والواقع الذى يبنيه الفلاسفة كالذى بين الحياة التى نحياها كل يوم والحياة التى يعرضها علينا الممثلون فى رواية مسرحية ، حيث لايقول احدهم شيئا سوى ما يجب عليه أن يقول ، ولا يفعل سوى ماينبغى ان يفعل ، وحيث توجد فصول ومناظر مقسمة ، وللفصل بداية ووسط ونهاية • أما فى الحياة فلن نجد من هذا شيئا : نجد حشدا من الكلام وقد نؤدى مجموعة من الحركات والارشادات لا جدوى منها • ليس هناك شىء يمر كاملا ، حلوا ، كما نريد ، كما انه لاتوجد خاتمة مرضية نقف

عندها ، ولا حركة أو اشارة جد حاسمة • تلك هى الحياة الانسانية ، وهى الواقع عند جيمس »

ونضيف وعند فيرجينيا وولف أيضا • ويقول جيمس وبرجسون أن القصاصين الذين يطبقون المنطق والعلم على شخوصهم قد شوهوا الحياة والحقيقة وبسطوها ، فقد حاولوا ان يصبغوا الشخوص فى قصصهم بصبغات معينة ويضعون عليهـا بطاقات فتصبح جامدة ولهذا يضعونها فى اطارات معينة وتبقى حبيسة يرسمون حولها خطوطا ودوائر لاتحيد عنها ويحدون من افكارها ـ ويسيطرون عليها • وتنصح برجسون القصاصين بأن يدخلوا الى نفوس شخوصهم عن طريق الحدس ويحاولوا ان يتغاضوا عن دقات الساعة وعقاربها والزمان الميكانيكى والمنطق وكل ما اتفق عليه فى رسم الشخوص ، وتنصحهم بأن ينسابوا مع تيار الوعى •

واذا نظرنا الى الشخوص فى القصة الحديثة وفى قصص فيرجينيا وولف خاصة ، لوجدنا ان تلك الشخوص ينقصها الرسم الدقيق الذى اعتدنا عليه فى قصص ديكنز وثاكرى ولوجدنا أنه لا ترابط بين الشخوص وما يجرى حولها ، فنفوسهم متعددة وغالبا ما تحير تصرفاتهم العقل وتربك المنطق •

وينقلنا هذا العرض السريع لتيار الوعى الى مذهب فنى آخر وهو الانطباعية فى النثر القصصى وفى الرسم ، ففى الرسم يستعمل الفنان نقطا من الالوان الصافية دون ان يخلطها على لوحة الألوان ولا تظهر الصورة بوضوح الا عن بعد وبعد تركيز شديد عندما تبدأ الالوان فى الاختلاط بعضها ببعض وتمتزج لتعطى احساسا بالتوافق والانسجام • ويقابل هذه النقط الزاهية فى القصة التجارب المختلفة التى تحصلها الحواس واشتات الافكار والمناظر المختلفة المتغيرة • ويصبح القصاص كالفنان يطل من نافذة فى رأس الشخصية ويرصد ما يدور داخل هذا الاطار •

وتعتقد فيرجينيا وولف ان حقيقة الشخص توجد فيه فى مكان ما ، وان عمل الاديب هو اكتشاف هذا الجوهر المستتر • ولا يمكن اعطاء صورة عن هذا الجوهر عن طريق رصد ودراسة افعال الشخص الخارجية وحركاته حتى ولو سجلناها كلها واخذنا فى اعتبارنا كل ما « يحدث » • ولكن يمكننا الوصول الى الجوهر عن طريق البصيرة أو الحدس وبهذا يمكننا الاندماج فى تيار افكاره الحى الذى يجرى فى وجدانه •

وقد استطاعت فيرجينيا وولف ان تقترب من هذا التيار الواعى وتسجله وتسيطر عليه فى « مسز دالواى » ، استطاعت ان ترصد العقل فى حالة التغير المستمر هذه وتمسك بالخيط من أوله وتبدأ فى عملية الغزل وتتحرك مع « المكوك » بين اللحمة والسداه حتى يتم لها نسيج القصة كلها • وتبدأ بطرف الخيط فى « مسز دالواى » فى أول جملة من القصة :

« قالت مسز دالواى انها ستشترى الازهار بنفسها •

فقد حددت للوسى عملها بدقة • ستنزع الابواب من محاورها ، كان رجال

« رمبلماير » سيحضرون • وبعد ذلك ، دار بخلد كلاريسا دالواى : ياله من صباح — منعش وكأنه طلع لأطفال على شاطىء البحر •

ياله من مرح ! يالها من وثبة ! هكذا كان الامر يبدو لها دائمـــا عندما كانت تفتح النافذة ، ونها صرير من محاورها ، وكانت تسمعه الآن ، وتقفز فى « بورتون » الى الهواء الطلق • كان الهواء منعشا ، والهدوء تاما فى الصباح الباكر ، اهدأ من هذا بالطبع ، كخفقة من موجة ، قبله موجة ، باردا وحادا ومع ذلك (بالنسبة لفتاة سنها ثمانية عشر ربيعا فى ذلك الوقت) مهيب ، كانت تشعر بهذا ، وهى تقف هناك عند النافذة المفتوحة ، ان شيئا فظيعا كان على وشك الوقوع ، كانت تنظر الى الورود ، الى الأشجار والدخان يتلوى بعيدا عنها والغربان تعلو ، وتهبط ، كانت تقف وتنظر الى ان قال « بيتر والشى » : « تتأملين وسط الخضراوات » — هل هذا ما قاله ؟ — « انى افضل الرجال على القرنبيط » — هل هذا ما قاله ؟ لابد انه قال هذا فى صباح يوم على الافطار وكانت قد خرجت الى الشرفة — بيتر ولش • سيعود من الهند فى يوم ما ، يونيو او يوليو ، لقد نست ايهما ، لان خطاباته كانت مملة ، كانت اقواله هى التى تذكرها ، عينيه ، مطواته ، ابتسامته ، حدة طبعه ، وعندما يزول أثر ملايين الأشياء — ان الأمر غريب حقا — عبارات قليلة مثل هذه عن الكرنب •

وتصلبت قليلا عند آخر الرصيف ، تنتظر مرور عربة « دارتنـــول » • امرأة جذابة ، كان هذا اعتقاد « سكروب بورفيس » (كان يعرفها كما يعرف الانســـان جيرانه فى وستمنستر) ، بها مسحة من طائر — ابو زريق ، ازرق — أخضر ، خفيفة ، مرحة ، ولو انها فوق الخمسين ، ولونها شاحب منذ مرضها • كانت تحط هنـــاك ، لن تراه ، تريد العبور ، تقف منتصبة • »

ويظهر التكنيك السينمائى فى هذه الصفحة الافتتاحية لمسز دالواى بوضوح وكذلك تيار الوعى • فنرى كلاريسا تفكر فى شراء ازهار للحفلة وفى العمل الذى طلبت من لوسى ابنتها ان تقوم به ثم فجأة تفكر فى اللحظة الحاضرة وتعلق على صفاء الجو فى هذا الصباح وينقلها احساسها بهذا الصباح المنعش الى الماضى البعيد والى مكان آخر وتجتر ذكريات مضى عليها اكثر من عشرين عاما ، تلك الايام الجميلة التى قضتها فى « بورتون » • وتستمر فى العيش فى الماضى وتتذكر ما كان يقوله بيتر والش ويقابل هذا التكنيك اللقطة القريبة فى السينما • ويتبع هذا تخيلها لزيارة بيتر والش لمدينة لندن • وتقف عند آخر الرصيف تنتظر مرور عربة « دارتنول » • وهنا نترك وعى كلاريسا دالواى لبضعة اسطر وندخل وعى شخص آخر يراقبهـــا وهى تنتظر العبور وهو (سكروب بيرفيس) جارها فى حى وستنمستر • ثم نعود الى تيار وعيها بعد ان نعرف من جارها ان سنها يزيد على الخمسين عاما وانها كانت مريضة •

وتيار الوعى فى قصصها اقل تعقيدا منـــه فى قصص جيمس جويس ويتميز اسلوبها بالشاعرية والموسقة • ولا تحاول فيرجينيا وولف ان ترصد أو تســـجل

افكار شخوصها كل على حدة وتعطى كل واحد منها طابعا مميزا ، ولكنا نلاحظ ان كل شخوصها تتكلم بلسانها وتفكر بعقليتها وبوعيها وبمنطقها وهنا يظهر ضعفها ، وتصبح شخوصها مملة احيانا نظرا لتشابهها الذى يقضى على المتعة فى التنوع •ومن الامور المملة ايضا عدم تقسيمها القصة الى ابواب وفصول ولا تظهر فواصل مميزة فى السرد من بدايته الى نهايته وكان تيار الوعى خيط طويل جدا اوله أول كلمة فى القصة وآخره آخر كلمة فيها • وفى القصة اسلوب واحد وطريقة عرض واحدة دون اى تغيير فى الاسلوب وهذا التكنيك يفرض على القصة ايقاعها منظما حتى ان الانتقال من تيار وعى شخص الى آخر يصبح من الامور الصعب اكتشافها •

واذا قارنا « مسز دالواى » بقصة « عوليس » لجيمس جويس لوجدنا ان تيار وعى ستيفن يختلف اختلافا كليا عن تيار وعى مستر بلوم أو مسز بلوم • فشخصية كل فرد فى « عوليس » يميزها تيار وعيها وطابع تفكير الفرد ومفرداته • أما فى « مسز دالواى » فنرى ان النثر الذى تعبر به الشخوص عن نفسها هو نفس النثر الذى تستعمله فيرجينيا وولف •

ومن مميزات اسلوب فيرجينيا وولف فى كتابة القصة قدرتها على ابراز الشخصية واضافة ابعاد جديدة لها بالرغم من كونها تعيش فى الحاضر • فحركة تيار الوعى الى الامام والى الخلف ، الى الماضى والمستقبل ومنهما الى الحاضر ، يمكنها من تغطية مساحة كبيرة من حياة الفرد فى بضع دقائق أو بضع ساعات • وهذا لا يعمق احساسنا بالشخصية فحسب بل يضيف الى قصصها ابعادا فلسفية • وليس هناك شىء جديد فى هذه الطريقة التى تنقلنا الى الماضى أو المستقبل أو ما يطلق عليه فى التكنيك السينمائى باللقطة القريبة أو البعيدة أو الارتداد ولكن ما يجب علينا ان نقدره هو قدرتها على تناول مشكلة الزمان وسرعة الانتقال بنا من وقت الى آخر ومن مكان الى آخر بهذه السهولة المتناهية حتى اننا لا نشعر ونحن نقرأ لها اننا قد انتقلنا الى الخلف عشرات السنين •

ويؤثر الزمان تأثيرا عظيما فى حياة شخوصها وتظهر قدرتها عندما تقارن بين الزمن الميكانيكى والزمن الذاتى • والزمن الميكانيكى زمن قاس لايمكن اطالته أو تقصيره أو استعادته ، اما الزمان الذاتى فيمكن بسطه وايجازه واستعادته فى الوعى عن طريق الذاكرة • وعندما تضع فيرجينيا وولف فى « مسز دالواى » الزمان الميكانيكى بجوار الزمان السيكولوجى تظهر لنا المفارقات العجيبة • فقد تسيل الادكار وتملأ ثلاثين صفحة من القصة فى مدى ربع ساعة حسب دقات ساعة بيج بن وربما نقرأ صفحتين أو ثلاث فى مدى ساعة ونصف ويسيطر الزمان الميكانيكى على الشخوص المهمة فى القصة امثال كلاريسا دالواى وبيتروالش وسبتيموس سميث بينما يستحوذ الزمان الذاتى الذى يسمو فوق الزمان الميكانيكى ويتعدى التسلسل التاريخى على كيانهم • وزمن الساعة فى القصة زمن محايد ، غير ذاتى ، لايمكن استعادته أو التحكم فيه وتقول : « كانت ساعة بيج بن على وشك ان تدق ، التحذير أولا ، منغم ، ثم الساعة ، لا تستعاد » •

ويؤثر الزمان الميكانيكي بشكل عام على كل الشخوص التى لها كيان جسدى وتستعير فيرجينيا وولف من التكنيك السينمائى فكرة المونتاج المكانى لكى تثبت شخوصها فى لحظة من لحظات وجودهم فى وقت واحد وهم يقومون باعمال مختلفة كما فى هذه الفقرة :

« كانت الساعة الثانية عشر بالضبط ، الثانية عشر بتوقيت بيج بن ، وكانت دقاتها تسبح فوق الجزء الشمالى من لندن ، تختلط بدقات ساعات أخرى ، وتختلط بطريقة أثيرية دقيقة بالسحب واعمدة من الدخان ، ثم تلاشت هناك الى اعلى بين طيور النورس ـ دقت الساعة الثانية عشر عندما وضعت كلاريسا دالواى فستانها الأخضر على السرير ، ومشت عائلة وارين سميث فى شارع هارلى · كانت الساعة الثانية عشر هى ميعاد لقائهم · وربما ، ظنت ريزيا ، ان هذا المنزل هو منزل سير وليام برادشو الذى امامه السيارة الرمادية · وتلاشت الدوائر القاتمة فى الهواء · »

فشخوص القصة المبعثرة فى انحاء مدينة دبلن وفى شوارعها تربطها مناظر مشتركة يشاهدونها من اماكن مختلفة فى نفس الوقت · فالطائرة التى ترسم اعلانات بالدخان فى الهواء عن نوع من الحلوى تشاهدها مسز كويتس ومسز بليتشلى ويشاهدها مستر « بولى » من مكان واحد ، ثم تشاهدها عائلة سبتيموس وارين سميث من مكان آخر · وتحلق الطائرة كذلك فوق بيتر والش وهو يسير فى الطريق · وتطلق فيرجينيا وولف على الطائرة كلمة « التركيز » أو البؤرة ·

« **وانطلقت الطائرة بعيدا بعيدا الى ان اصبحت شرارة لامعة ، غاية ، تركيز ، رمز ··· لروح الانسان ، لتصميمه ··· على الخروج من جسده ، بعيدا عن منزلة ، عن طريق الفكر ، أينشتين ، التأمل ، الرياضيات ، نظرية « منديل » ـ وانطلقت** الطائرة بعيدا · وهذه الطريقة تمكن فيرجينيا وولف من خلق عالم صغير تشترك فيه الشخوص كلها على مسرحها الصغير فى الاستماع الى نفس الشىء ومشاهدته · وتمكنها هذه الطريقة من دراسة الترابط والوحدة فى شخوصها عن طريق ابراز تجاوبهم المشترك المتزامن مع شىء واحد وبهذا يصبح اليوم رمزا لكل الأيام والمكان رمزا لكل الأماكن ومجموعة الشخوص رمزا للبشرية ويتضح نسيج القصة اذا تأملنا الخطوط الطولية والعرضية التى يمثلها تقاطع سير الشخوص أو تلاقيها فى مدينة لندن وتفاعلهم وردود افعالهم مما يوحى الينا بالترابط والوحدة ·

وما هو الدرس الذى تريد فيرجينيا وولف ان تلقيه علينا ، اذا كان هناك درس؟ فليس لدينا اشارات الى الناحية السياسية أو الاجتماعية ، وليس هناك رسالة وربما ارادت فيرجينيا وولف ان تلمح لنا بها فى عبارة تمر بخاطر بيتر والش حين تقول :

« **وربما ما كان يعوضه عن كبر سنه ، أخذ بيتر والش يفكر ، وهو يخرج من ريجينت بارك ، ممسكا بقبعته فى يده ، هو هذا : ان العواطف تظل قوية كما كانت دائما ، ولكن الانسان قد اكتسب ـ فى النهاية ! ـ القوة التى تضيف طعما رائعا للحياة ، ـ القدرة على الامساك بالتجربة ، وتمعنها ، ببطء ، فى النور ·** »

والتجربة التي تمسك بها فيرجينيا وولف لتقلبها في يدها وتتمعنها هي حقيقة الحياة والموت ، أو باختصار ، مغزى تيار الوعي ذاته الذي يحملنا على صفحته منذ ولادتنا حتى الموت وظهور صور الأمواج والأنهار في قصصها يؤكد هذا التفسير وتقول في مسز دالواي على لسان بيتر والش :

« وهذه هي الحقيقة عن روحنا ، كان يفكر ، ذاتنا ، التي تسكن ، كالسمكة ، بحورا عميقة ، تروح وتجيء وسط الغموض تغزل طريقها بين سيقان اعشـــاب ضخمة ، فوق أماكن تضوى فيها اشعة الشمس ، وتغوص الى أسفل واســفل حتى تصل الى ظلام ، بارد ، عميق ، غامض ، وفجأة تنطلق الى السطح وتلهو فوق الأمواج التي تداعبها الريح . »

ولا عجب اذن في ان تكتب فيرجينيا وولف فيما بعد عن « الأمواج » في قصة مستقلة . ولا نستطيع ان نجد فقرة أو جملة تحدد بها موقف مسز دالواي من الحياة والموت بشكل قاطع ، وصفحات القصة تزخر بالرؤى التي تنير لشخوصها ولنا الطريق لثوان ثم يخبو ضوؤها ثانية ولكنها كافية لان تشير الى تدفق الحياة التلقائي . وتسيطر مسزدالواي على مسرح القصة وتصبح بمثابة بؤرة تلتقي وتتجمع فيهـــا مشـــاعر الشخوص الأخرى وأحاسيسهم حتى الخدم . ويؤمن زوجها ريتشارد بانه سعيد الحظ بزواجه منها ، حتى خطيبها القديم بيتر والش لازال قلبه مملوء بنفس الحب العميق لها . فكل الشخوص سحب مسز دالواي فهي بؤرة من النور ومركز للجذب ولو انها متعجرفة الى حد ما وباردة وعلاقاتها سطحية مع الآخرين . ولكن بالرغم من كل هذه المتناقضات في شخصيتها فهي تهتم بالجميع في قرارة نفسها وتهتـــم بمشـــكلة التوصيل والعلاقات دون أن تستطيع هي ان تحقق هذه الروابط والعلاقات .

« ... وماذا كان يعني الأمر بالنسبة لها ، هذا الشيء الذي كانت تســميه الحياة ؟ آه ، ان الأمر كان غريبا . كان فلان هنا في كنسنجتون ، وشخص ما هناك في « بايزواتر » ، ولنقل شخص آخر في « مايفير » . وكانت دائما تشعر بوجودهم ، وكانت تحس ان الأمر كله ضياع ، يا للخسارة ، وشعرت لو كان في الامكان جمع شملهم ، وفعلت هذا . وكان هذا عرضا ، لجمع الشمل ، للخلق ، ولكن لمن ؟ »

وتتحرك القصة بأفكارها وحوادثها البسيطة حتى تصل الى ذروتها في الحفلة النهائية وتتلاقى الخيوط الرفيعة وتتقابل الشـــخوص الرئيسية في زمان ومكان واحد . ومن بين الضيوف يدخل سير وليام برادشو لكي يضفي على العلاقة الروحية بين عائلة سبتيموس وارين سميث ــ تلك العلاقة التي ظلت حتى الآن مجرد توافق في الافكار والمشارب والخيال ــ نوعا من الواقعية . والشخص الوحيد الذي لم يحضر الحفل هو سبتيموس الذي انتحر ويمثل في القصة جدولا صغيرا من تيار وعي كلاريسا دالواي . وكان سبتيموس هو الوحيد الذي كان في استطاعته التعبير عن الرســالة السامية التي تحاول مسز دالواي ان تعبر عنها وهي حب الانسانية . وكان سبتيموس جنديا اصيب بصدمة اثناء الحرب ولكنه كان يكتم سرا دفينا في صدره . ودفعه هولمز

وبرادشو دفعا الى الانتحار بعد ان حاولا ان يلقيا به فى مستشفى للمجانين لأنهما فشلا فى العطف عليه . وترمز فيرجينيا وولف الى من قاموا بتحطيمـــــه بالطبيعة البشرية ، بالعقلية العلمية العملية المنطقيـــة . وبالرغم من تغيبه عن الحفل فلازالت روحه ترفرف فوقهم لانه يمثل «الهى» عند كلاريسا دالواى أو النفس الطاهرة الصافية أو الجانب الحدسى المنعزل المعزب فى شخصيتها . وتشير مسزدالواى الى هذه النفس بقولها .

« ولكنها كانت تقول ، وهى جالسة فى الاتوبيس المتوجه الى الشارع شافتزبرى انها تشعر وكأنها فى كل مكان ، ليس « هنا ، هنا وهنا » ، ولمست ظهر المقعد ، ولكن فى كل مكان ، ولوحت بيدها وهى فى طريقها فى شارع شافتزبرى ، لقد كانت كل ذلك . ولذلك اذا أردنا أن نعرفها ، أو نعرف أى شخص آخر ، فلابد لنا من البحث عن كل الناس الذين كانوا يكلمونهم ، حتى الاماكن . كانت تربطها روابط غريبة بأشخاص لم تتكلم معهم اطلاقا ، سيدة ما فى الشارع ، رجل خلف طاولة للبيع ... وكانت تعتقد أنه اذا كان ما يظهر منا ، ذلك الجزء الذى يظهر منا ، يمكن مقارنته ولو للحظة بالذات الاخرى ، التى لانراها ، والتى تنتشر فى دائرة كبيرة ، فهذه الذات التى لاترى ربما تحيا ، ويمكن اكتشافها متعلقة بهذا الشخص أو ذاك ، وربما ظلت تهيم فى أماكن معينة بعد الموت ... ربما ــ ربما » .

ويظل الاتصال أكثر من مجرد تقابل أو تلاقى فى حفلة ، ويظل الفرد فى حياته سجين فرديته ، وفى الموت تقول فيرجينيا وولف .

« الموت تحد . كان الموت محاولة للاتصال ، والناس تشعر باستحالة الوصول الى المركز الذى كان ، من الناحية الصوفية ، يراوغهم . فى التقارب انعزال ، تذوى النشوة ، ويصبح الانسان وحيدا . لقد كان فى الموت عناق . » .

***

« الى الفنار ١٩٢٧

« مامعنى الحياة ؟ » كانت ليلى بريسكو » تتساءل وهى تتأمل لوحتها الزيتية التى لم تنتهى منها فى « الى الفنار » وهذا هو السؤال الذى رددته فيرجينيا وولف فى « مسز دالواى » وتعود فى « الى الفنار » الى نفس السؤال ونفس الحيرة فى محاولة اخرى للامساك بالحياة وبالتجربة الذاتية . وقطعة الحياة التى تتأملها فيرجينيا وولف فى الضوء فى قصتها « الى الفنار » وتختارها للتحليل الدقيق ليست قطعة كبيرة فقد حددتها لنا فيرجينيا وولف منذ البداية . فقد وضعت شخوصها تحت مجهر قوى وسلطت عليها انوارها حتى لتبدو القصة كلها وكأنها لوحة دقيقة الصنع . وتقع القصة هذه المرة فى ثلاثة اجزاء رئيسية لأسمائها أبعاد لها مغزى ــ « النـــافذة » ، ولا يخفى التشابه بين النافذة واللوحة الزيتية باطارها و « الزمان يمضى » والجزء الأخير « الفنار » .

وفى « النافذة » نعلم عندما نطل مع فيرجينيا وولف على عقل مسز رامزاى ان العائلة تنوى القيام برحلة الى الفنار من اجل الصغير جيمس بالرغم من تحذير الوالد بان الجو لن يكون مواتيا لمثل هذه الرحلة ٠ ولا تتم الرحلة ٠ وفى الجزء الثانى يبقى المنزل خاويا وتتقدم الشخوص فى السن ويتهدم المنزل من جراء « مرور الزمن ومضيه» وتموت مسز رامزاى واثنين من أبنائها ويتحكم الزمان فى كل شىء ٠ وفى الجزء الأخير تعود الشخوص الى المنزل وتتم الرحلة وتنتهى ليلى بريسكو من لوحتها ٠

ومنذ المحاولات الاولى فى الفصل الاول وحتى اتمام الرحلة فى الفصل الاخير الفنار بضوئه واشعاعه يسيطر رمزيا على القصة ٠ فالفنار رمز للأمان والطمأنينة ورمز للكشف والاستنارة والنور وسط الظلمات ، رمز للاشـــارات والايمـــاءات والاستمالة وفيه اشارة الى الضوء والومضات التى تظهر وتختفى لكل من يعيشون فى الزمان أو فى بحر الظلمات ٠ وهو الى جانب ذلك قلعة طويلة صلدة فى وسط هـذا الخضم من الامواج المتغيرة ، فى‌هذا البحر الذى يكتنفه الغموض وتسيل على صفحته الامواج وتزخر اعماقه بكل ما هو غريب وغامض وبارد ومظلم ٠ وهذا الرمز يحيرنا ويحير فيرجينيا وولف ، فالبرغم مما له من فائدة فى ارشاد السفن الضالة فهو يظل شيئا منعزلا والعلاقة بين الفنار ومسز رامزاى تظهر منذ البداية :

« وغالبا ما كانت تجد نفسها جالسة تنظر ، حتى اصـبحت الشىء الذى تنظر اليه ـ ذلك الضوء ، مثلا ـ وكانت تحمله عبارة صغيرة أو أخرى من العبارات التى كانت تستقر فى عقلها ٠٠

كانت تمدح نفسها وهى تمدح الضوء ، دون غرور ، فقد كانت قاسية ، كانت تنقب وتبحث ، كانت جميلة مثل هذا الضوء ٠ لقد كان الأمر غريبا ، كانت تظن ، وكيف يميل الفرد اذا كان وحيدا ، الى اشياء عديمة الحياة ، اشجار ، جداول ، ازهار ، ويشعر انها تعبر عنه ، شعر بالوحدة معها ، شعر أنها تعرفه ، انها صارت مثله ٠ »

ويقول دافيد داتشيس ان الفنار « رمز للفرد الذى يعتبر انسانا فريدا وفى الوقت ذاته جزءا من المتغير ٠ والوصول الى الفنار قد يعنى الوصول أو الاتصال بحقيقة خارج الذات ، أو تنازل الذات عن الأنا فى سبيل حقيقة غير ذاتية ٠ » ولا يتم ذلك الا بعد الوصول الى الفنار وحينئذ تزول المتناقضات ويصبح الموضوع والذات شيئا واحدا وتذهب الانانية وتفسح الطريق للحقيقة ٠

وتعتبر « الى الفنار » محاولة اخرى لاكتشاف طريقة فنية لاعادة خلق الحقيقة التى توجد فى الشخصية ويمكن اعتبار القصة انجح قصة لها ٠ ومكان الاحـــداث جزيرة نائية غير معلومة فى الهبردينر (مجموعة من الجزر يبلغ عددها ٥٠٠ على بعد من الشاطىء الغربى لاسكتلندا) ، والزمان : أحد ايام شهر سبتمبر وقبل نشوب الحرب العالمية الأولى ببضع سنوات ، والشخوص : مستر رامزاى استاذ الفلسفة وزوجته واولاده مع بعض الضيوف يقضون اجازة ومع الضيوف فنانة هى ليلى بريسكو ٠ وقد

حاولت ليلى بريسكو طوال حياتها ان تمســـك برؤية أو تدرك معنى « الحقيقة » وتترجمها الى ألوان واشكال على لوحتها ، وحين نقابلها ندرك ان محاولاتها قد فشلت ٠

ونرى فى الفصل الاول مسز رامزاى وهى سيدة جميلة تنحصر مهمتهـا فى الحياة فى التقريب بين الناس والجمع بينهم وهوايتهـا هى الغزل بالابرة والتريكو ونراها فى الصفحة الاولى تغزل زوجا من الشرابات ٠ والغزل هواية تسمح لها بالخلق الفنى والابداع وبالنسيج وبوضع الخيوط فى اطار تماما كما تفعل فيرجينيا وولف فى قصصها ٠ والغزل يشغل اصابعها ويعطى الفرصة لتفكيرها بالطواف والتجـوال بحرية ٠ ولا ينتهى أثر مسز رامزاى فى الآخرين بموتها وكأنها توحى الينا ان الموت ما هو الا دخول فى دورة اخرى من دورات المتغير ، فهى ستظل تعيش فى نفـوس الآخرين فى نفس زوجها ونفس ليلى بريسكو وفى لوحتها الزيتية ٠

ولا ندرى عن موت مسز رامزاى الا فى الفصل الثانى وفى جملة قصيرة مقتضبة فى معرض الحديث عن المنزل ٠ وتفعل كذلك عندما تشير الى موت برو واندرو رامزاى ٠ وتترك العائلة الجزيرة والمنزل وتطرأ تغيرات كثيرة على المنزل وعلى افراد العائلة ٠ فيصبح المنزل قديما متهدما ويقتل ابنها « أندرو » ويستمر الصراع بين جيمس ووالده وتموت ابنتها « برو » أثناء ولادة طفلها واخيرا وبعد عشر سنوات يزور ما بقى من افراد العائلة الجزيرة مرة ثانية ومعهم ليلى بريسكو ٠ وفى الفصل الاخير يحقق الصغير جيمس رغبته فى زيارة الفنار وتتمكن ليلى بريسكو من الانتهـاء من رسم لوحتها ٠ وبالرغم من عدم وجود مسز رامزاى معهم الا ان روحهـا هى التى تتحكم فى احداثه وتحل محلها ليلى بريسكو ٠

وفى نطاق هذه القصة البسيطة استطاعت فيرجينيا وولف ان تجمع خيوطا كثيرة وتغزل نسيجا غريبا من الآراء والرموز ٠ وما يقال ويسجل قليل فى هذه القصة ايضا ــ فتات من افكار وآمال لاتتحقق ورغبات ومخاوف وتأملات فى الحياة والموت ــ كل هذه تتدفق على صفحات القصة وتسجلها فيرجينيا وولف كلمـا طافت بعقول اصحابها ٠ يخيل الينا احيانا ان تجمعات هذه النقاط تكون لوحة انطباعيـة جميلة وتكشف لنا عن جانب من الجوانب العديدة للحقيقة ولكن مغزاها العميق سرعان ما يفلت من بين ايدينا ، وعوضا عن هذا « فهناك معجزات يومية بسيطة ، استنارات ، اعواد من الثقاب نشعلها فى الظلام » ٠

وفى النهاية نحظى باحساس غريب بأن هناك أملا ، أملا صادق يتحقق وتتم التجربة بطريقة ايجابية ، فنزور الفنار وتنتهى ليلى بريسكو من لوحتها على اثر رؤيتها لمسز رامزاى على درجات المنزل ٠

« ونظرت الى الدرجات ، وكانت خالية ، ونظرت الى لوحتها ، ووجدتهـا غير واضحة ٠ وبشعور دافق وكأنها رأتها بوضوح للحظة ، رســمت خطا هنـاك ، فى المركز ٠ وتمت ، وانتهت منها ٠ نعم ، اخذت تفر ، وهى تضع فرشاتهـا فى اعياء

بالغ ، لقد حققت رؤيتي » ولوحة ليلى بريسكو تعبير عن الحقيقة التي تبحث عنها فيرجينيا وولف فاللوحة تجسيد عن طريق الالوان والظلال لرغبتها في ان تجعل الحياة تقف ساكنة هنا وان تجعل من اللحظة شيئا ثابتا وهذه خاصية من خصائص الرسم والتصوير تحاول القصة ان تحاكيها — تجميد الزمان ذاته • وتقول ليلى بريسكو وهي تفكر في مسز رامزاي :

« وفي وسط الفوضى كان هناك شكل ، ذلك التدفق الأزلي والجريان ٠٠٠ تحولا الى استقرار • « توقفي ايتها الحياة هنا » كانت مسز رامزاي تقول • « مسز رامزاي! » « مسز رامزاي ! » اخذت تردد •

لقد كانت تدين لها بكل شيء • »

ولقد استطاعت فرجينيا وولف عن طريق الرمز ان تعبر عن عالم الفرد الداخلي وما ينساب فيه ولكن بالرغم من قدرتها وحساسيتها الفائقة في تصيد هذه اللحظات وتسجيلها نحس دائما ، معها ، ان في الأمر شيء يدعو الى الاحباط • فلم تستطع ان تصور لنا سر الوجود في صورة واضحة ، فالسر اكبر واعمق واصعب من ان تحدده لوحة زيتية أو رحلة الى فنار •

والقصة دراسة في العلاقات الفردية وفي الروابط الانسانية • وكما حاولت مسز دالواي ان تجد وسيلة للاتصال بآخرين في « مسز دالواي » في الحفلة التي تقيمها في آخر القصة ، نجدها تجمع فريقا من الاصدقاء في منزل ناء على جزيرة في البحر وتظل مشكلة التوصيل والعلاقات كما كانت عليه ، ولكن فيرجينيا وولف تسمح لبقية افراد العائلة بالوصول الى الفنار بعد عناء وتجارب شتى وحرب ومـوت ، سمحت لهم بعد أن حصلوا على نصيب من الحكمة والوعي لتدلل على أن التجربة الذاتية شيء ضروري للوصول الى الراحة الذهنية والنفسية وتظل مسـز دالواي والفنار بعيدا المنال ، فمهمتها ان يرشدا الضالين بالضوء الذي ينبعث منهما • وبعد سنوات من الألم والتجارب استطاع جيمس رامزاي الصغير الذي كان يود أن يقتل والده في أول القصة ان يتخلص من هذا الحقد « الأوديبي » ويصادق والده •

والماء الذي يحيط بالفنار لا اسم له لأنه بحر الحياة وتيار الوعي ولا بد أن يظل بغير اسم لأنه الحياة ذاتها • ومستر بانكس يرفض ان يلقي بنفسه في تيار الحياة ويظل على الشاطىء كما يوحي اسمه بذلك •

***

الأمواج ١٩٣١

تعتبر « الأمواج » تحفة من ناحية الاسلوب ويطلق عليها أحد النقاد « قصيدة نثرية » • وفكرة القصة هي امواج التجارب وهي تتكسر فوق مجموعة من الشخوص وعددهم ستة وتفرق بينهم فيرجينيا وولف بطريقة مبتكرة وتراقبهم جميعا في مراحل حياتهم المختلفة — من الطفولة الى النضوج الى الموت • وتتكون المجموعة من «برنارد»

وهو « انبساطي » النزعة ، اجتماعي يحاول دائما ان يعبر عن جوهر الحياة بكلمات وعبارات ، » ثم (نيفيل) وهو (انطوائي ، رقيق ، سريع الغضب ، صعب الارضاء ، قنوط يجفل من الصداقات والعلاقات التي يقدمها له الناس من حوله) « ولويس » ابن مدير بنك استرالي يقاسي من شعور بالنقص) ومعهم ثلاث فتيات سوزان وهي شهوانية تحب التملك و (جيني) وهي شيطانة صغيرة عنيدة مراوغة تعصى الاوامر دائما واخيرا « رودا » خجول تحب العزلة ولم تستطع ان تكيف نفسها ٠

وتدعو فيرجينيا وولف القارىء ان يشارك هذه الشخوص احساساتهــا ايام الطفولة عندما يكون العالم مكانا ساحرا جميلا مثيرا فيه غذاء للحـــواس الى ايام الشباب الحالمة بما فيها من طموح وآمال الى مرحلة النضوج التي تجلب شــــعورا واحساسا غريبا لمعنى « الحقيقة » الى الاحساس بالحزن والفشل ومشكلة الموت حين يبتلع الزمان كل الآمال العريضة ٠

وتترك فيرجينيا وولف برنارد وحيدا في النهاية ليلخص لنا ما صادفه في حياته كما تضع نفسها مكان كل شخص لتمسك بانطباعات الحياة وتجاربها عند مرورها السريع فوق الشخصية وتغير من اتجاهها وتدفعها وتسوقها الى النهاية ٠ وتقتبس الزمان في القصة عن طريق تسع وقفات رمزية تشير الى مسار الشمس فوق البحر منذ الفجر حتى الليل ٠ وهذه الفقرات الوصفية تعتبر من أجمل ما كتب في اللغـــة الانجليزية وهذه هي الفقرة التي تصف فيها ضوء الصباح :

وسقط الضوء على الأشجار في الحديقة ، وبدت احدى الاوراق شـــفافة ، ثم أخرى ٠ وغرد طائر في مكان عال ، وكان هناك سكون وغرد آخر في مكان تحته ٠ وحددت اشعة الشمس جدران المنزل ، واستقرت كطرف مروحة فوق ستارة بيضـاء رخافت بصمة اصبع زرقاء رقيقة من الظلال تحت اوراق الاشجار عند نافذة حجرة النوم ٠ وتحركت الستارة برقة ولكن الداخل كان معتما وغير ذي بال ٠ وغنت الطيور لحنها المرسل في الخارج ٠ »

وفي (الامواج) يجري البحث عن الحقيقة وقبل نهاية القصة ندرك ان الحقيقة موجودة ضمنيا في كل تجربة ولكن العقل لايستطيع ان يجردها ولا تستطيع الكلمات ان تعبر عنها ٠ ويعبر عن ذلك برنارد الذي كان يحاول دائما ان يحبس الحقيقة في عبارات ومفردات بقوله :

لقد سقط كتابي المحشو بالعبارات على الأرض ٠ يرقد تحت المنضدة في انتظار ان تلتقطه مدبرة المنزل عندما تأتي مع الفجر تبحث عن قصاصـــات من الورق ، وتذاكر ترام قديمة ، ومن هنا ومن هناك ورقة مطوية في شكل كرة تركت لهـــا لتكنسها مع باقي الاوراق المهملة ٠٠٠ السكوت احسن بكثير ، فنجـــال القهوة ، والمائدة ٠ ان الجلوس بمفردي كالطائر البحري الوحيد الذي يفتح جناحيه احســن بكثير ٠ دعوني أجلس هنا الى الابد مع هذه الاشياء العارية ، فنجال القهوة هذا ، هذه السكين ، هذه الشوكة ، اشياء في ذاتها ، وذاتي ذاتها ٠ لا تأتوا وتقلقوني بملاحظاتكم،

لقد آن الأوان أن اغلق الدكان وأرحل • انى على استعداد ان اضحى بثروتى كلها عن طيب خاطر بشرط ألا تزعجونى ، وتدعونى أجلس هنا وأجلس فى صمت ، وحيدا »

لقد امضى حياته كلها يحاول أن يسجن هذه الحقيقة ويجمدها فى عبارات ولكنها كانت كتيار الوعى وكأى تجربة نفسية عميقة بعيدة عن التعبير • واخيرا ادرك ان تيار الوعى أو الحقيقة هو ادراك ان « الفجر ما هو الا نوع من النور فى السماء ، نوع من التجديد ••• نعم ، هذا هو التجديد الأزلى ، شروق وغروب مستمر وغروب وشروق آخر • »

***

وقصص فيرجينيا وولف انعكاس لبحث الرمز بين فى الشعر الحديث عن حقيقة موحدة لايصل اليها العلم ولا الفلسفة ولا العقل ، ولكن تصل اليها البصيرة الملهمة والحساسية فى الادراك التى تكاد تبلغ مبلغ الكشف • ووجهة نظر كهذه تنطوى بلا ريب على مضمون فنى عميق يعتبر بمثابة رد فعل واحتجاج على القيود التى فرضتها الثورة الصناعية فى انجلترا على فكر الفرد • وتبين فيرجينيا وولف فى قصصها ان اعظم الاخطار التى تهدد الانسانية هو فقدان البصيرة والحياة الذاتية تخرج قصصها فى شكل علاج نفسى بالممارسة لهذا الاحساس وذلك بابداع اسلوب خاص بالنفس تناجى به نفسها تتغنى بفرديتها خصائصها المميزة • عن طريق العلاقات الدافئة والتعاطف والحب بين الافراد يولد الانسان الكامل الذى يتمتع بكامل ذاتيته والذى يحقق امكانياته بتوسيع آفاق تجاربه الذاتية • ولهذا فقصصها انعكاس لنوع من الارستقراطية الفكرية تتعلق بكل ما هو نادر وفريد ومثلها الاعلى هو الفنان وليس بالمفكر أو القديس ، ذلك الفنان الذى يجعل الحياة نفسها فنا بشعوره واحساسه بنواحى الجمال فيها الامساك بلحظات آنية بالرغم مما فى الحياة من تغير مستمر • واذا وجدنا فى قصصها غموضا فالسبب يرجع الى انها تعالج « حالات » ولا تقوم بمجرد التقرير الوصفى أو التحليل العقلى فالتجارب الذاتية لايعبر عنها سوى الرمز • وليس من المستغرب ان قصصا كقصص فيرجينيا وولف لها مطالب مثل هذه المطالب تعتبر احيانا ترفا صوفيا خاصا بنخبة من العارفين بالاسرار ، لا صوتا معبرا عن المطالب المباشرة الملحة لمجتمع حديث • وتعد فيرجينيا وولف من اعلام القصة الحديثة لأن لها روحا مبدعة حققت وسجلت ما فاضت به الحياة من اثراء وتؤكد قصصها عنصرا هاما فى الحياة وهو الانسانية أو الحياة ـ رهبتنا وسرورنا حيال اسرار الخلق وامام الروح الخلاقة التى تبدع فى خفاء ما لايمكن حصره •